بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

او المنجم هو الذي يرعى النجوم فيحسب مواقيتها وسيرها ليعلم منها احوال العالم . « فاصحاب هذه الصناعة يزعمون انهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها ، من قِبَل معرفة الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة »[1] ، ويدّعون معرفة حوادث الغيب من رصدها والوقوف على تأثيراتها في العالم والخلائق . وفي زعمهم ان المولود ، منذ ساعة ولادته ، يؤثر فيه احدها . ومتى ارادوا معرفة ماضي الانسان ومستقبله ، وما يعرض له في حياته من سعد او نحس ، ويؤس او نعيم ، وتوفيق او زيغ ، ونجاح او خيبة ، توسّلوا بحسبانات الكواكب وسيرها لمعرفة اوضاعها ، ولاسيما الاعمار والولادة للاستدلال على ما يريدون . ويعتقدون ان الكواكب على بعدها لا تخلو من فعل في العالم ، لانها كائنات حيّة متكيّفة بكيفيات متفاوتة في المنافع والمضارّ ، والخير والشر ، والاحسان والاساءة ، وان نورها لا بد له من أثر في الكائنات العنصرية من اجل المزاج الحاصل لكل كوكب . وهذه الآثار تختلف وتتفق وتتناقض فيهدم الاثرُ الأثرَ ، وذلك لكثافتها واوضاعها ، وطلوعها وغروبها ، واختلاف المواقيت والساعات والشهور . ولا ينجو من تأثيرها انسان او حيوان او نبات او معدن ، اذ كل مولود عبد لها بالطبع ، فتتصرف به في حياته على هواها .

---

١) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الادبية ، بيروت سنة ١٨٧٩ ، ص ٥١٩ .

اذن السعد والنحس ، والنعيم والشقاء ، والخير والشر تتوقف على النجم .

ثم ان تأثير قوى الكواكب ليس مقصوراً على الانسان والكائنات الشخصية ، بل يتناول الكائنات الكلية والشعوب والامم والممالك فتزيد وتكثري ، وتتقوّى وتهن ، وتسعد وتشقى ، وتنعم وتبأس بالتأثيرات المتعاقبة عليها . وهذه الطوارئ الواردة عليها كلها مكتوب في اسفار السماء . فالعالم كل العالم من قرأها وابدى اسرارها . فكانت هذه الاعتقادات باعثاً على رصد الكواكب والتطلع الى معرفة اوضاعها وادوارها وموافقتها ومضادّتها وتأثير قواها مفردة ومركبة ، ومشتدّة ومتوانية ؛ اذ ان كل الحوادث الطارئة على الشمس والقمر والنجوم الحرّارة كلها دلالات بل آيات وإنذارات للشعوب من قبل الملأ الاعلى . فالعاقل العاقل من اتعظ بها وسار طبقاً لها .

وفي القديم اشتهر البابليون بهذه الصناعة كما جاء في سفر اشعياء : « قد اعييتِ من كثرة مشوراتك ، فليقف راصدو السماء الناظرون في الكواكب ، المعرفون عن رؤوس الشهور ، وليخلصوكِ مما هو آتٍ عليك . »[1] وقد عُرف اصحاب هذه الصناعة باسم « كلدانيين » كما ورد في سفر دانيال[2] . فكلمة « كلداني » كانت في اصل وضعها تدلّ على المتضلّع من العلم والمتعمّق والمتبسّط في المعارف والامور القضائية والرياضية وصناعة التنجيم . وكان الكلدانيون يتدارسون هذه العلوم بلغتهم الكلدانية القديمة ، طبقاً لما ذكر دانيال النبي من قوله : « فاجاب الكلدانيون الملك بالارامية : ايها الملك حييت الى الابد . »[3] ولهذا السبب اختار تيوكدنصر منهم الولاة والحكام . وذكر هيرودت[4] ، وشايعه ديودور الصقلي[5] ان اسم « كلداني » كان يشمل كهنة بعل مردوك ، فلما عطلوا من العلوم واقتصروا منها على العرافة والكهانة والتنجيم ظل هذا الاسم ملازماً لهم ملتصقاً بهم ، وصارت كلمة « كلداني » مرادفة للعرّاف والكاهن والمنجّم .[6]

---

١) اش ٤٧ : ١٣ ٢) دانيال ٢ : ٢ و ٤ ؛ و ٣ : ٨ و ٤٨ و ٤ : ٤ ؛ ٥ : ٧ و ١١

٣) دانيال ٢ : ٤ ٤) I, 181

٥) II, 24 ٦) معجم التوراة لبيكورو ، المجلد ٢ ، عمود ٥٠٨

وما عتمت هذه الصناعة ان انتقلت من الكلدانيين الى العرب ، ودليله ان المتكهن يسمى في لسانهم حزّاء او حازياً من مادة حزى الارامية [1] ؛ والى المصريين ؛ ومن مصر انتقلت الى بلاد اليونان فايطالية ثم عمت اوربة الغربية. وقد لقيت في الاجيال الوسطى مقاومة عنيفة ، وبالرغم منها اشتهرت وانتشرت. وفي القرن السادس عشر بلغت أوج عزّها ، اذ كان حينئذٍ لكل ملك منجم يلازمه . فلويس الحادي عشر كان له منجم اسمه غالوتي (Galeotti) ، وكاترين مديسيس زوجة هنري الثاني كان عندها منجم ايضاً اسمه قزما روجيري (Ruggieri) . ولكن ما طلع فجر القرن الثامن عشر حتى بطلت ، وأعرض عنها القوم ؛ خلا ان بعض العلماء الاعلام تعلقوا بها ومالوا اليها مثل كردان (Cadran) وتيخو براه وكبلر .[2]

ولكن هل للكواكب في التحقيق تأثير في مقادير الآدميين ؟ وهل لكل واحد ، كما يزعم ارباب هذه الصناعة ، نجم في الفلك يمتد فعله الى افعاله بجملتها ويسيطر على اموره ، ويؤثر فيها ؟

فلنسأل العلم ، ولنستطلع رأيه مستصحبين باقوال الاب مورو[3] في الجواب على هذه المسئلة . ولكن العلم يقول لنا : ماذا تكون ايها الانسان المتكبر في وسط هذا الكون المعظيم ! ان السيّارة التي تسكنها وتقع عليها المنازعات بين الناس ان هي الاّ هباءة تلعب بها الرياح في اجواز الصحراء الافريقية الفيحاء. فمن حاول مقايسة نفسه بجرثومة تدب على هذه الارض الصغيرة كل الصغر الضائعة بين مجتمع الكواكب عُدَّ جسوراً. «ها ان الامم تحسب كنقطة من دلو ، وكهبوة في ميزان . ها ان الجزائر كذرّة تنفض . »[4] اننا ولا ريب نسقط حين ولادتنا على هذه الارض ، ونقضي على ظهرها ايام حياتنا القصيرة الفانية ،

١) مونث الحازي حازية ، وجمع الاول حازون ، والثاني حوازي قال الاخطل :

ولاق ابن الحُباب لنا حياً كفته كل راقية وحازِ
ولاق ابن الحُباب لنا حياً كفته كل حازية وران

٢) معجم لاروس ، ص ١٥٢

٣) *Les énigmes de la science, Paris, 1923, p. 91.*

٤) اشعياء ٤٠ : ١٥ .

ونحسب انفسنا ثابتين غير متنقلين ، بينما نحن نسير ونتحرك على الدوام . فهذه الارض التي نخالها ثابتة تسبح في وسط اجواز الفضاء وتقطع دورها السنوي البالغ تسع مئة مليون كيلومترًا بسرعة ثلاثين في الثانية ، والشمس تسير ايضاً بسرعة عشرين ، والسيارات كلها تسير ، وكل ما حولنا يسير ، ونحن في هذا الفضاء الأفيح تحدق بنا نجوم اكثرها شموس بالغة معظم الكبر ، وقد ربطت بينها القدرة الالهية كما ربطت جميع الكائنات علوًا وسفلًا ، وقدرت لها بقوة التجاذب ادوارها وحركاتها واوضاعها في افلاكها ، فمن اجل بعدها الشاسع عنا قلّ تأثيرها في عالمنا . فضلًا عن ان الفلكيين قصروا عدد النجوم على بضع مئات من الملايين . فهب انها تبلغ المليار ، فاين هذا العدد من البشر المنتشرين المنبثين على ظهر الارض الذين يكادون يناهزون المليارين ؟ فانى والحالة هذه يكون لكل منهم نجم في جوّ السماء ؟

ثم اننا نقول ماذا ، اذا عرفنا ان نور بعض النجوم يحتاج الى آماد متطاولة ليصل الينا بالرغم من سرعة جريه البالغة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية ؟ فاذا كان الامر كذلك فأيّ التأثير تحدثه النجوم في الارض وهي على بعد جدّ بعيد منا ؟ غير ان النيّرين الشمس والقمر يشذان عن هذا الحكم اذ لا يسع احدًا جحد تأثيرهما في سيارتنا . فالشمس تفعل في الكائنات العنصرية لانها تشملها ليلًا ونهارًا بنورها وحرارتها . وهذه الحرارة تزيد وتنقص ، تزيد في مدة اربع سنين ونصف سنة ، وتنقص في سبع ، ولا تزال الحوادث عينها تتكرّر على هذا النحو . وقد يقصر عمر الفلكي كله عن الوصول الى معرفة ما يتولد في جوّ الشمس من الغيوم المتأطمة المتأججة البالغة ستة آلاف درجة من الحرارة وما ينشأ من الزوابع والاعاصير الشديدة التي يعجز القلم عن وصفها ، وما يهبّ من العواصف الهائلة والانفجارات التي تذهب بمئات من السيارات الصغيرة المشبهة سيارتنا . فلولا المراقب لما استطاع الفلكيون رؤية هذه الحوادث ولا ادركوا شدتها .

بيد ان اشعة الانوار المنبعثة من هذا الاتون الدائم الاستعار لا تدلنا على حقيقة المادك القوية المشتبكة بين تلك العناصر الجائشة الهائجة ، لما يعتريها من

التغيّر الدائم والظهور في مظاهر مختلفة متنوعة من اشعاع ، وانارة ، وتسخين ، وكهربة ، واحيـاء واخصاب ؛ وحينئذٍ تكون الارض بمنزلة وتر من اوتار قيثـارة الشمس يهتزّ اذا اهتزّت ، ويتأثر من جرّاء انقباضها وانبـاطها ، وامتدادها وتقلصها . ولعلّ السبب في زيادة حرارة الشمس منسوب الى تهافت المواد المبعثرة حول النير وتساقطها عليه ركاماً واكواماً ، فتكون لهـا بمنزلة الحطب للنار يحييها ويهيجها ويزيد في حرارتها . والدليل على ذلك ظهور الكلف وانتشارها في قرصها ، وافراط اشتداد الحرارة وانقلاب المواد التي تقدم ذكرها ارواحاً لطيفة او غازات ذات الوان بنفسجية مشبعة . فهـذا الينبوع العظيم ينبوع الحرارة ألا يؤثر في حياة الارض والكائنات ؟

على ان الفلكي المشهور هرشل قرّر منـذ زمان طويل نسبةً بين كلف الشمس واسعار الحنطة . والاب مورو اثبت ان جودة غلة القمح في العـالم ، والعنب في فرنسة ، نتيجة اشتداد فعـل الشمس ، وان تكاثر قطع الجليد المنفصلة من جهات القطب الشمالي والسابحة في المحيط الاتلانتيكي لها علاقة به ايضاً ، وان اشتداد البرد والحر في اوربة من تأثيراتها اي من تأثيرات هـذه الكلف . ثم ان اشتداد الحر وقت بلوغ الكلف معظمها يحدث تبخيراً في ما يلي خط الاستواء فتتساقط الامطار على اثرها غادقةً وابلة . هـذا وان للشمس تأثيراً آخر ايضاً ؛ وذلك ان الكهرباء المتطـايرة من اجل الحوادث الكيميـة النـاشئة من احتراق المواد المتصعدة من اتون الشمس تؤثر في جوّ الارض فيقوى بسببهـا انوار الفجر القطبي ، وتختلّ الابرة المغناطيسية فتضلّ وجهتها وتلعب المجاري الكهربائية بسطح الكرة الارضية فيكون جريها تابعاً لحركة دورتها ، ويبطل فعل الخطوط التلغرافية ساعات واحياناً اياماً ، وتقـع الزلازل ، وتهب جبال النـار اي البراكين من سباتها وتكثر الاعاصير في البحور ، وتقوى هذه المظاهر في اوقات معلومة كل اربع وثلاثين سنة . ويعمّ هذا الفعل عروض البلدان ، ويتعاقب المطر والجفاف ادواراً كل سبع عشرة سنة .

ثم ان الانسان نفسه لا ينجو من تأثيرات هـذه الحوادث اذ انه يشعر

بالكهربا. قرب حدوث العاصفة ولا يراها ، وتؤثر في جهازه العصبي ، لان كلّ امرئ يشبه الرصيف الكهربائي ، او الدينامو ، ينتشر حوله هبوات مغناطيسية عديدة تزيد وتنقص ، تقلّ وتكثر في كل دقيقة . فهذا التشبيه قد لا يصدق من كل وجه لان البحث في المواد العنصرية لم يزل في مهده .

وقد استدل من ذلك الاب مورو الذي زاول حرفة التعليم زماناً مستطيلاً على ان القعاصات في المدارس تكثر ايام وقوع الانحرافات المغناطيسية ، اذ تتأثر من جرائها امزجة الاولاد ، كما تتأثر الابرة المغناطيسية ، والطباع ، واستعدادات النفوس ، والوئام بين العيال ، والمؤتمرات ، وسنّ الشرائع ، وتؤثر العلاقات السياسية بين الممالك ، واضرام الحروب . قال الاب مورو : واذا صدقت حساباتي واستقراءاتي تكون اوقات ضعف فعل الشمس اوقات راحة وهدوء وسلام تشمل الارض وسكانها . ففيها اقيمت المعارض العامة ، ولكن عند اشتدادها ، قويت المنازعات والحروب ، كما جرى سنة ١٨٧٠ و ١٩١٤ كما تراه امامك في الرسم .

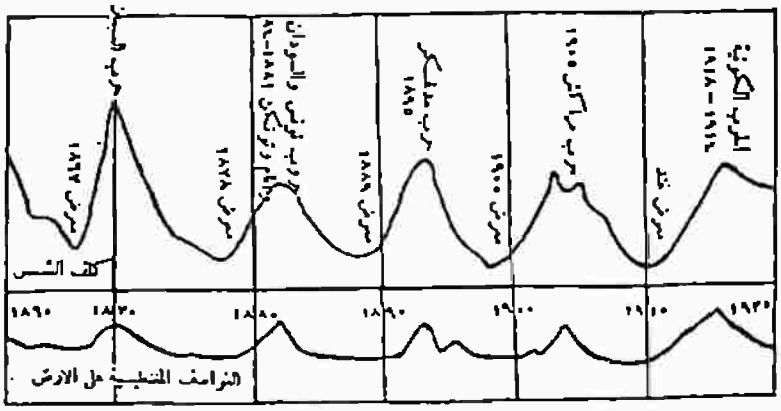

اما فعل القمر فظاهر في المد والجزر ، اذ ان هذه الحركة المتعاقبة كل يوم على مياه البحر فترتفع وتنخفض ، وتمتد وتنحصر ، تتولد من التجاذب الحاصل بين الشمس والقمر ، وتجري متفقة ودورة الارض . فحينما يكون القمر فوق مياه البحر مباشراً لها يؤثر فيها بالجذب ويحملها على الارتفاع فيحدث المدّ ،

ومتى مثال عنها حدث الانخفاض اي الجزر . وعلى هذا النحو لا تزال المياه في الابحر تذبذب علوًا وسفلًا حول مركز متوسط ثابت يسمونه « السطح الوسط » ، ومهما بلغت المياه معظم ارتفاعها وانخفاضها وقفت حينًا ثم عادت الى حركتها من علو وسفل ، على ان معظم تأثيرات القمر تقع على أثر دنوّه من الارض . ولكن فعله يختلف كل يوم لتنقله بين الارض والشمس . فمتى كان هلالًا او بدرًا ، يكون والشمس من جهة واحدة ، فيقوى اذ ذاك فعله . فيكون اذن المدّ والجزر ناشئين من اختلاف فعل النيرين . ثم ان شكل الشواطئ وسعة البحار لها تأثير في المدّ والجزر وسيرهما المتبع . ولما كان بحرنا المتوسط منقسمًا الى برك او احواض كثيرة نتج ان المدّ والجزر لا يقعان الا في خليج سيرت (Syrte) المسمى اليوم خليج سيدر (Sidre) على شاطئ طرابلس الغرب ، ويتصل فعله الى شواطئ تونس . ويحدث في سائر الابحر ، ولاسيما في بحر الصين عند ساحل كشنشين وتنكين والصين ، وساحل فرنسة بين سان مالو وشربورغ . ففي سان مالو يبلغ ارتفاعه اثني عشر مترًا ، وفي شربورغ خمسة امتار ونصف متر ، وفي غرانفيل احد عشر مترًا ونصف متر ، وقد يبلغ اربعة عشر مترًا وسبعين سنتيمترًا ، وفي كندا بغرضة فُندي (Fundy) خمسة عشر مترًا ونصف متر ، ويبلغ احيانًا تسعة عشر وستين سنتيمترًا .

وينسبون الى القمر تأثيرات اخرى غير محققة . ولكن لما كان نوره اضعف من نور الشمس كان فعله الكيمي اضعف . وتأثيره في حفظ الغابات والنبات زعم . واما القمر الاشقر (*rousie*) وتأثيره في البراعيم الغضة الطرية فحديث خرافة ، اذ ان اصفرارها وبيسها منشأه الاشعاع العظيم المتولد من اصحاء الهواء ، لان الغيوم تحجب نوره وتنقص الاشعاع والبرد ، والله اعلم .